العدد 02

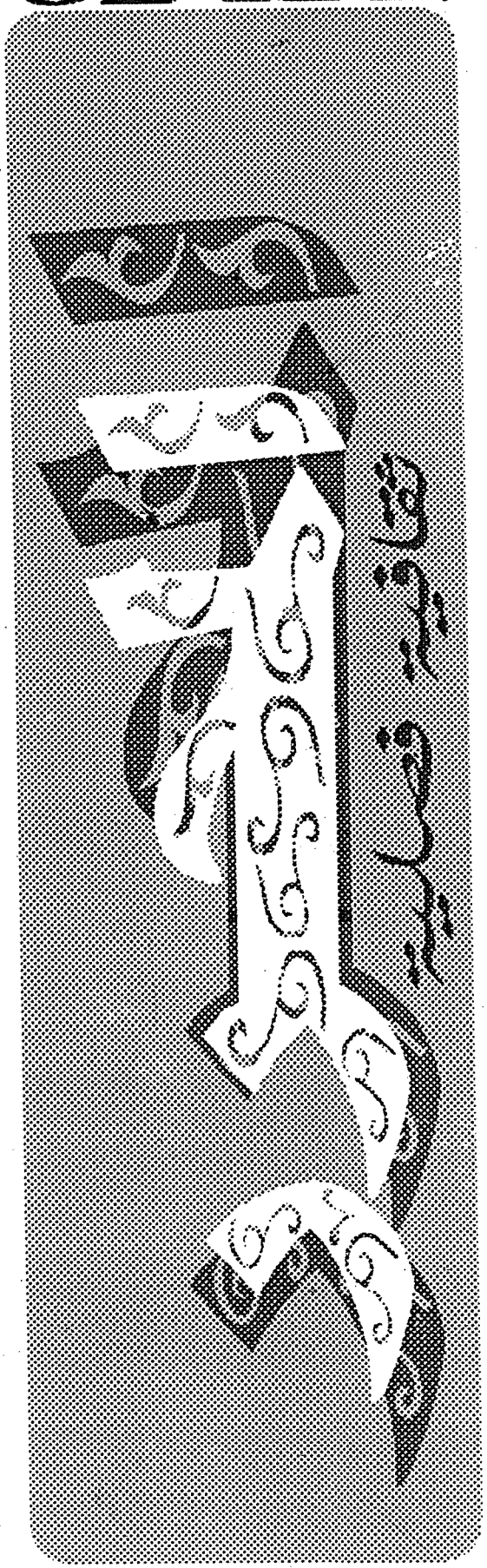

في هذا العدد:

أولاد أم هانئ

رواية قصيرة

محمد بن تــتــّا

أغسطس 2006

تنويه

أحداث هذه القصة وأشخاصها من نسج الخيال، فإن وجد بين أحداثها أو أشخاصها ما يماثل أشخاصا واقعيين أو أحداثا وقعت بالفعل فبمحض الصدفة والاتفاق الخاليين من كل قصد.

تذكير

نشر هذا النص تفاريق في ما بين عامي 1997 و2002، في كتاب"الوسيط في الأدب الموريتاني الحديث" وجريـــدتي "المحرر" و"مرآة المجتمع".

1. مقدمة ليس منها بد

أضربأخفاف البغيلة ألمها حذارابن ربعي بهن تحوم

جميل بن معمر

قال أبو بكر بن مالك أستاذ العربية والتربيـــة الإســـلامية والتاريخ بإعدادية الروضة:

أما بعد فإن هذا الكلام ليس كمثل شيء مما يكتبه النـــاس فتنة بالقول أو سعيا وراء مجد فني موهوم، فهو في باب طلب المعاش بطلب "المثالة بين الناس ومداجاه عندهم" - كمـــا يقول التوحيدي- أدْخَلُ.

وتفصيل ذلك أنني جربت جملة مـــن الأمـــور كالـــدروس الخصوصية والمتاجر الصغيرة وسيارات الأجرة ثم عدلت عن ذلك كله لعدم جدواه وقررت أن أكون أديبا كبيرا ليسهل

علي الترقي في الوظيفة وأحصل على جائزة من جوائز الإبداع الوطنية.

وأنا أعرف غير واحد من أصحابنا وغير أصحابنا قرروا أن يكونوا أدباء فألفوا كتبا وتكلموا في التلفزة ومثلوا بلادنا في كثير من التظاهرات العربية والإفريقية والدولية؛ ولكنني لا أحب هذا النوع لما تقتضيه عادة من الأسفار الطويلة وما يصاحبه من الغرم في إمداد المصروف وتنظيف البدلة، حسبي أن أكون أديبا داخليا معتمدا لدى إدارة تشريفات الدولة وإدارة الثقافة وهو ما سيقع بحول الله حالما أنتهي من كتابة هذه القصة وأنتزع بها إعجاب أحد القائمين على تنظيم حفل العشاء الذي يقام عادة على شرف كل ضيف كبير. وسيكون بوسعي أن احضر الحفل ضمن من يحييه من الأدباء والفنانين، وهكذا سأرقى مراقبا عاما أو مدير دروس بل ربما استطعت، عن طريق بعض الشخصيات الكبيرة، أن أعين

مفكرا أو باحثا في بعض المؤسسات. وربما أصبحت، إذا أدرجوا بعض ما أكتب في المقررات الدراسية، في عداد الخالدين.

وأنا أعرف سيدة على صلة وثيقة بسيدة على صلة وثيقة بمحاسب نافذ الكلمة في اختيار الأدباء والفنانين الذين يحيون الحفلات، ولكنني لا أحب وساطة النساء. فالرزق مضمون، والعمر طيف، و الله طيب لا يقبل إلا طيبا. ولو كنت أرضى هذا الباب للجأت إلى زميل قديم في المهنة له مراكب وأموال ومساكن وجاه عريض وشركاء شرق البحر الأحمر وشمال البحر الأبيض، مع الدين الثخين والإنفاق في وجوه البر، ولكنه استخرج ذلك كله- فيما بلغني- من كفل زوجته. على أنني لا أدري إذا تمكنت من حضور الحفل هل يقبلون مني القصة كما يقبلون الشعر؟ فنحن بلد المليون

شاعر لا بلد المليون قصاص. وهل بالإمكـــان، إذا كـــان الضيوف العرب يفضلون الشعر على القصة، أن نقرأ القصة للضيوف الأفارقة مع فواصل من دقـــات الطبـــل، مـــثلا، ونحتسب لهم ذلك في كرم الضيافة الإفريقية؟

ولكن .. ليس هذا أوان هذا، فليس من العســـير علـــي إذا دعت الضرورة تحويل القصة إلى شعر حـــر، ولـــيس مـــن المستحيل أن أتصل بأحد القائمين علـــى الحفـــل بطريقـــة مشرفة، المهم الآن أن أكتب هذه القصـــة وأنـــا لا أدري بالضبط ما سأقص ولا كيف سأقص فأنا في موقف لا يخلو من الحرج:

أريد أن أكتب شيئا يرضي القارئ من جهـــة ولا يعـــود بالضرر على الكاتب من جهة أخرى. إذا كتبت قصـــة في مدح "التعليم الأصلي" أو "المسلسل الديمقراطي" أو"المغرب العربي" فقد تتهمني المعارضة بالتملق، وإذا كتبت قصة في ذم

الرشوة واختلاس الأموال العمومية فقد يظن المحاسب الذي سيتوسط لي أنني أعنيه هو، وربما ظنت إدارة التعليم بي الظنون ففتحت على نفسي أبوابا من البلاء.

وإذا كتبت قصة واقعية مما وقع أو يقع للناس الطبيعيين الذين ليسوا من الحكومة ولا من المعارضة، فربما حاز بعضهم لنفسه ما كتبت. وقد يضربوني أو يشكونني إلى المحكمة فأحبس. وأنا لا أحب أن أكون شهيدا — نعوذ بالله — كأدباء الخارج الذين يعيشون ويموتون في الحبس. كما لا أحب أن أكون عميدا كأولئك الأدباء الذين يعملون — نعوذ بالله — بالأمن الوطني؛ لا أريد إلا أن أعيش كما يعيش الناس وأن أخدم وطني كما يخدمه الناس، وأنا لا أريد أن أكتب شيئا من أمور الناس، لأنني لا أحب المشاكل مع الناس؛ ولو كان يجوز — عقلا — أن تكتب قصة بدون

أحداث أو أبطال لكتبتها تجنبا لكل ما من شأنه أن يثير الناس. ولو كان ممكنا عقلا أن يوجد بطل مجهول القبيلة – كما يفعل كتاب الأوربيين من قلة العقل – ما ابتغيت به بدلا. و لكن أيمكن- نشدتك بالله - أن نتصور رجلا يقول ويفعل ويحكي ويكتب قوله وفعله في كتاب دون أن نعرف عشيرته؟

وقد لبثت زمانا لا أدري هل أستعير أشخاص القصة وأحداثها من غير قبيلتنا فأعرض نفسي للضرب أو الحبس، أم أستعيرها من قبيلتنا فأعرض نفسي للتعنيف والشتم، خصوصا أنهم يعلمون من قديم معايبي وحديثها ما لا يعلمه غيرهم.

ثم استقر رأيي على أن الشتم والتعنيف خير، على كل حال، من الضرب والحبس، ثم إنه ليس يلزمني، كمن لا عقل لـــه من الكتاب والشعراء، أن أنتقد الناس ما لم ينتقدوني. لم لا

أكون كهؤلاء الكتاب والشعراء، مئات الشعراء والكتاب، الذين عاشوا حياة حافلة بالعطاء دون أن ينتقدوا شـــيئا، أو يجلبوا شنآنا لأنفسهم أو لقبائلهم؟

بل لماذا لا أمدح قبيلتي وأخص كل واحد مـــن الأعيـــان بفصل؟وأنا واثق أنهم سيسرون إذا ذكرلهم أني مدحتهم في كتاب وسيكافئونني، خصوصا، إذا علموا أنني لم أكتب هذه القصة إلا حين بدأت ظروف الحياة تقسو علينا وأنه "لا بد من شيء يعين على الدهر"

ولو كان أحد يسلم من بني آدم، لخرجت من كتابة القصة على هذا النحو سالما غانما، ولكن لا سلامة من المخلوقات. ولكأني بأولئك النقاد الثقلاء، خصوصا من يكرهون قبيلتنا منهم، يقولون كيتَ وكيتَ. وهذه أخبار قبيلة وليست قصة ولكنني قطعت عليهم الطريق، فقررت ألا أذكر اسم قبيلتنا،

وأن أكتفي باسم جدتنا العليا أم هانئ، فإذا قلت "أولاد أم هانئ" حسبها القارئ في الشمال من قبائل الجنوب أو الشرق، وحسبها القارئ في الجنوب من قبائل الشمال أو الشرق وظن القارئ في الشرق أنها إحدى قبائل الجنوب أو الشمال فلم يلق لها بالا، وهكذابدأت:

"لا ينتسب أولاد أم هانئ إلى أب واحد، إذ كانت - فيما يبدو- من المتزوجات، ملولا لا تدوم على بعل، أو كانت من اللائي يقمن على طريق القوافل حيث لا إناث فتجعل منهن مشقات السفر وأحلام المسافرين في مجاهل الصحراء معالم لا ككل معالم الطريق، فربما تزوجن عشرات المغامرين، وربما أنجبن من بعضهم بنين لا يدري الواحد منهم عن أبيه غير ما يدري أبوه عنه: أنه أودعها إياه ومضى لسبيله قبل أن يدري هل يكون أم لا يكون.

غير أن أم هانئ لم تكن من هذا الصنف من النساء، فهي مهما يكن عدد أزواجها - في السر أو العلن — لم تنجب إلا من اثنين أو ثلاثة منهم جميعا، أقامت تحت كل منهم ردحا من الزمن بدليل إتقان كل لسان أبيه، وأخذه بمذهبه في الحياة ولكل منهم في شأن أمه وأبيه مذهب. أما البكاي وهو أسن أبنائها من مالك في أيامنا هذه فيروي فيما يروي عن الخضر عليه السلام وسيدي عبد العزيز الدباغ(اللذين لقيهما غير واحد من أهل الكشف والتمكين يزوران قبر الولي) حديثا طويلا في نسب مالك وسيرته. وعن البكاي روى ابنه حامد ما أثبته في "أسنى المسالك إلى أنساب آل مالك" (الذي صنفه، وهو فتى، قبل الجفاف ببضع سنين، ثم حققه في آخر عهده بمدرسة المعلمين العليا) وقد جاء فيه:

"لم تر العين لأم هانئ شبيها يوم زفت إلى جدنا العارف بالله مالك، وهي يومئذ عذراء لم يطمثها من قبله إنس ولا جن. وكان جدنا مالك فتى قواما بآيات ربه من وُلد زين العابدين بن الحسين ينتهي من جهة أمه إلى سعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنهم، وقد كان آثر ولد أبيه عنده وأدناهم منه منزلة، غير أنه رغب عن الدنيا إلى ما عند الله، وآثر الخمول والستر على الظهور، وسار على وجهه حين خاف انكشاف أمره للناس. وبينما هو ذات ليلة في تهجده إذ أخذته سنة من النوم فرأى – فيما يرى النائم– كأنه احتمل في رفرف أخضر إلى جهة مغرب الشمس ثم أنزل بأرض لا أنيس بها قِبَل مجمع البحرين، وإذا شيخ يرتد الطرف عنه هيبة يتلو "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي

إليهم" (ثلاثا) وارزقهم من الثمرات" (ثلاثا) فلم يزل من نومته تلك إلى ذلك الموضع بالأشواق.

"وجاء، نفعنا الله به، إلى هذه الأرض فاختط بها مسجدا قرب روضته الآن، ونشر بها العلم والتقوى، ودانت له الدنيا، فكان حرما آمنا لا يعوذ به عائذ من مكروه إلا أمن، ولا يسأله سائل حاجة من حوائج الدنيا أو الآخرة إلا قضاها، ثم تزوج أم هانئ فأولدها ما تقر به العين. وكان، نفعنا الله ببركته، حين كان له الولد وخاف العيلة شكا إلى الله قلة الخول، فمن عليه بحيين ليس يدرى لهما عند النسابين وأهل التواريخ أصل، هما تلاميذ آل مالك وعبيدهم، وسخر الله له كفرة السودان فهدى على يده منهم خلائق ليس يحيط بها الحصر، فهم إلى اليوم أتباعه ومريدوه".

وعلى هذا النحو ترجم حامد في كتابه لجدنا الولي مالك وبنيه ومريديه فكان فيما أتى به مقنع، من أجل ذلك اكتفيت فيما سأقص بأهل الحل والعقد والوجاهة عند السلطان من أولاد مالك دون غيرهم من الصلحاء والعلماء وأهل الله، ممن لا يغني غناءهم عند الملمات.

2. أهل الحل والعقد

2. 1 سيدي مانه

لم تلد أم هاني أمخض لشكوة ولا أحذق بمغزل ولا مخيط ولا إبرة ولا إشفى من سيدي مانه.

غير أنه لم يكن يزن بما سوى الخنث والتكسر في إشارته إن تكلم أو أنه في مشيه كان يتورك. ولا كان، في ما عدا ذلك، من هيئته وإربة نفسه، بحسب ظواهر الأحوال، إلا في عداد الرجال.

فلما انتقل إلى المدينة لقي بها من الأنداد ومن عنت الحياة ما رفع عنه الحشمة شيئا فشيئا، فكان أول أمره ربما اكتحل أو كلم الودع في مجالس النساء، ثم زجج الحاجبين، ولبس الرقيق واكترى مع زميل له غرفة خلف ثانوية البنات، نكرة كعشرات النظراء. وإنما علا شأنه ودانت له دنيا الغانيات

وطلابهن بعد تلك الملاحاة بينه وبين جارة له جاءت لتوها من الداخل ففتحت غرفة للعمل.

وقد تواعدا لذلك مساء يوم الخميس مغيربان الشمس قرب حاوية الأوساخ حين خروج الناس صيفا إلى ظلال المنازل. وبينما هي تتحشد إذ أقبل سيدي مانه في دراعة ذات كمين من النيلة، وفي معصمه سواران، وعلى يمينه زميله في الغرفة يرمقه بإعجاب، أما هو فلم يكن يزيد على الخزر.

فبادرها الرفيق:

– الله يكفينا باسكْ

قالت:

– ليس إياك أقصد، إنما أقصد هذه المُريَّة.

قال سيدي مانه:

– أهذا ما جاء بك؟ ومن ذا الذي لا يعلم أنني امرأة؟ اسألي من شئت، اسألي إمام مسجد الجامع، يخبرك أن بي وحما منذ ثلاثة أشهر".

– لو كنت امرأة لكان أبوك شريفا. ولكنك خرجت سبهللا: لا رجلا ولا امرأة، ومن مثلك استعاذ النبي، وبه أمر أن يقتل فقال: "اقتلوا قوم لوط".

فجمع كمه تحت الإبط الأيمن بحركة مسرحية وقال متهكما:

– أو ترينه كان يتبرك بك؟ يتوسل لربه بك؟ يأمر بالطبول فتضرب لك؟ يقول فيك الشعر؟ كان الرسول إذا أتى بامرأة قبيحة مثلك سفيهة مثلك .. زانية مثلك ضربها بالحجارة حتى تموت. ولكن .. أترين نفسك امرأة؟!"

قالت:

- أحمد ربي وأشكره.

قال:

- ولربنا يحمد الجدري وكل مكروه، إحمديه على عراقيبك التي تقشر البطاطس، وعلى فجوتك التي تجمد رياحها الزيت المغلي، وعلى عويدات المكنسة التي تمشين عليها، ووطيئة الغزال التي بينها، وعلى ...

فخالفت بين أطراف ملحفتها وجلست تنتحب؛ وأقبل الفتيات يتوددن إليه، فلم يلبث بعد تلك الملاحاة إلا أسابيع حتى هجر حي الطلاب والمومسات وصغار الموظفين إلى منزل أنيق بحي لاس بلماس.

"وكان إلى سلاطة لسانه وإلى ما يزنى به من الفاحشة طلق اليدين وهوبا لكل غـــال، وصـــولا للأرحـــام بالعطايـــا

والوجاهات، وفد على العمدة يوما فنقده خمسمائة ألـــف أوقية مما هو مرصود لمثله من أعيان المدينة، ففرقها قبـــل أن يغادر المبنى على من لقي من المعارف.

ودخل على الوالي فأقطعه أرضا لا تقدر بمال، وهبها للبكاي فحج من ثمنها إلى بيت الله الحرام وابتنى بما تبقى منه مسجدا. وكان أعظم آل مالك يدا عند حامد لما قام به من الأمر العظيم في طبع مؤلفه الذي أتاح له عضوية اتحاد المؤرخين العرب واتحاد كتاب آسيا وإفريقيا، واتحاد مؤرخي حوض البحر الأبيض المتوسط، كما وصله بالعقيد سالم أيام كان أمينا دائما للجنة العسكرية.

وكان حامد – فيما روي – شكا إلى سيدي مانه ضيق ذات اليد، وانصرف من عنده ليساهم في البرنامج المشهور "إننا ندعوكم إلى أن تجعلوا من هياكل تهذيب الجماهير لحام وحدتكم وعلاج أمراضكم الذاتية" فما كاد ينصرف من

عنده حتى كلم العقيد في الهاتف، فقال بعد أن حدثه عن حامد:

إن جئتني الليلة صحبتك إلى فتاة كأنها شقة قمر تداوي بها ظهرك"

قال:

– وأين هي؟"

قال:

– تدرس بثانوية البنات، وتقيم بين رفغ الكهلة والمصران الزايد.

وجاءه سالم عجلان في سيارة "للرجال" ملثما لا يبدو منه سوى عينيه. فسأله سيدي مانه سؤال المدل:

– وأين ما سألتك صباحا؟"

فقال العقيد:

- ذكرني إذا رجعنا من مهمتنا الليلة"

فقال لزميله:

- رتب غرفة النوم حتى نعود.

وعادا بعد قليل مع الفتاة وقد ارتحشت. فأشار إليها العقيد بالجلوس على حافة السرير. فجلست وجلس العقيد إلى جانبها فقال سيدي مانه:

- ألا يخرج الرجال حتى نبدل ملابسنا؟!

وأخرج من الدولاب ملابس عروس تفوح عطرا فألبسها إياها. وعاد العقيد، فجلس أقرب، يخبشها من هنا وهناك وهي لاتزال واجفة. وقال سيدي مانه لزميله:

- أعد الشاي حتى أسمع العروس شيئا"

ومد يده إلى حافة السرير ينقرها بأظافره الحمراء ثم قال طالبا التصفيق:

- أكفافكم.

وغني:

"مـــس الا مـــس مـــس الجكلـــــول
زر يابـــــــــس لوخر مـــبلـــول"

والثلاثة يصفقون ثم قال:

- صوتي غير جميل. أما العقيد - يا سعده - فصوته كالياقوت. فإذا بقيتما وحدكما، فاسأليه أن يغني لك".

ودارت كؤوس الشاي في لمح البصر وأغلق العقيد باب الغرفة. فليس ينفذ منه إلا زفرات وتأوه مخنوق. ثم ران الصمت دقائق وانفتح الباب ودخل سيدي مانه وهي لا

تزال مستلقية وبجانبها حزمتان أو ثلاث من أوراق النقد

فقال بحنان:

قومي يا ابنتي! أزيلي عنك آثار بطشة هذا الفحل. والبسي ثيابك التي جئت بها ليوصلك قبل أن يفتقدك أهلك. ثم قال ملتفتا إلى العقيد:

- أتذكر ما قلت لك ؟

قال:

نعم! أرسله إلي صباحا"

فما كاد العقيد يخرج بالفتاة ليوصلها قبل أن يحين موعد حلقة البوكر حتى أسرع سيدي مانه إلى حامد يخبره بالموعد.

فذلك، فيما بلغنا، من غير وجه، سبب تعيين حامد أمينا تنفيذيا مكلفا بمهمة لدى الأمانة الدائمة.

2. 2 - العقـــيد ســـالم

لم يكن سالم يوم قامت الحرب إلا ضابطا صغيرا في صفوف كتيبة من قواتنا المسلحة وقوات أمننا الباسلة. غير أن ترقيته إلى رتبة نقيب جاءت على سبيل المكافأة يوم قـــاد العـــدو الذي كان يلاحق كتيبته إلى قاعدة للجيش الملكي المغـــربي فلم تبق منه عينا تطرف. إضافة إلى ما هو مشهور عنه من الدقة في تنفيذ أوامر قادته ومن قضاء أوقات فراغه في اللهو البريء كعطعطة الأوراق ومغازلة النساء بعيدا عن منتديات السياسة.

كان — فيما روي عن حامد بن البكاي، وكان منقطعا إليه — "شديد التعظيم للصالحين وأهل الله وصولا لهم بالهـــدايا والنذور. وله بشامخ — قال حامد — ثقة لا حدود لها، يأتيه كلما جاء في العطلة ويصحبه، مستشفعا به، إلى قبر الولي،

وكان ينوط به الأعاجيب. فمن ذلك ما روى من زيارتـــه إياه بعد ترقيته نقيبا وأنه أهدى إليه أشياء ذات ثمن، وأسر في نفسه بعض حاجته، فما انصرف من عنده حتى اســـتدعي فولي قيادة المنطقة العسكرية. وكان ذلك أول علو شأنه في السياسة.

"نقطة ضعفه الوحيدة – قال حامد، كالمدل بصحبته – هي النساء. كان في مبدإ أمره كثير التجول بين أحياء العاصمة إذ كان رئيسا للجنة الجهوية للهياكل، بحكم وظيفته، وكان في جولاته وفي اجتماعاته دائم البحث – من خلف نظاراته الطبية – عن كل نادر فإن عثر عليه بذل فيه كـــل غـــال ونفيس.

وسرعان ما عرف المنعشون ورؤســـاء لجـــان المقاطعـــات ومسؤولو اليقظة منه هذا الخلق فكانوا يخطبون وده من حين لآخر ببعض ما يشتهي.

وعظم شأنه حتى قالت فيه الزوينة:

– من لم يكن عنده للنساء ما عند سالم فليستر نفسه وليسأل الله الستر الجميل"

فلما استوضحوها قالت:

– عظم ما عنده وقرب ما في يده.

"غير أنه – قال حامد – على طول ملابسته – تبارك الله أحسن الخالقين– للنساء، كان بعيدا عن الخناقات، مصحوبا بتوفيق من الله وستر عن زوجته وعن أزواج وأولياء عشيقاته. وما وقع من ذلك لا يعدو لكمات نادرة أو أخذات بالتلابيب لا تنيف على العشر إلا بقليل. كان يتغلب عليها بحكمته وكياسته خصوصا بعد أن انقطع إليه سيدي مانه. ولم تطلع القيادة الوطنية منها إلا على الستر اليسيرأيام نفاس سيدي مانه.

وتفصيل ذلك، إن صح ما روت الزوينة التي كانت شريكة أغلانا في الحانوت وحافظة سرها "أن سيدي مانه مل حياة البوار وأصبح يزور الأولياء للسعد وللذرية المباركة فلم يلبث أن تقدم إليه عدة خطاب اختار من بينهم من قسم له، وزف إليه في حفل بهيج، بعيدا عن عيون الفضوليين والدعاة والإخوان المسلمين. فما مضت أسابيع حتى أسر إلى أغلانا أنه ينتابه من التثاؤب والغثيان ما لا عهد له به، وأنه لا تفسير لديه لذلك إن لم يكن من بوادر الحمل.

قالت:

– صدقت، هذا ما وقع لي عندما حملت بصباح"

ثم إن أغلانا صحبته إلى عيادة متخصصة في أمراض النساء والولادة، ومن بعد إلى مختبر للتحليلات الطبية التي دلت – فيما نقل عن سيدي مانه – أنه يعاني من انفتاح في الرحم،

وأن عليه أن يلازم الفراش مستلقيا على قفاه مدة أسابيع خيفة الإجهاض.

وكلمها ذات مساء زوج سيدي مانه في الهاتف يخبرها بما يعانيه هذا الأخير من آلام المخاض ويدعوها للحضور على وجه السرعة.

وكان معها العقيد أيامئذ لا يفارقها إلا قبيل الفجر معللا تأخره عن البيت بالظروف الأمنية للبلد وما تقتضيه من ملازمة المكتب. فسفه رأيها وحاول أن يثنيها عن الذهاب إلى الطب، ولكنها امتنعت خوفا من سيدي مانه، وارتأت أن يذهبا — هي والعقيد — بسيدي مانه إلى عيادة خاصة تخصص لهما مكانا منعزلا في الحديقة حتى يلد سيدي مانه، واتصلا بالرجال والعراب والسالك وزوجاتهم فجاؤوا جميعا

وانطلقوا به إلى العيادة، وهو يئن أنينا متصلا، وربما صـــاح تحت وطأة آلام المخاض:

- يا لطيف. .. يا لطيف"

فتقول النساء:

- الله يفرج عنك ببركة النبي، الله يفرج عنك ببركة رسول الله"

ولم يدخل مع سيدي مانه في غرفة الولادة غير زميل له كان يطلع الجماعة من حين لآخر على ما جرى. ثم جاء لـــيعلن للجماعة أن سيدي مانه من الله عليه بالفرج. فقالت أغيلانا ممعنة من تملقه:

- ولد أم بنت؟"

فقال متضاحكا:

- مسكينة أنت ! ما أصلحك! هو لا يلد، وإنما يبيض بيضة واحدة"

"وهذا كله – قالت الزوينه – مقبول ممن يعرف سيدي مانه ويعرف سلاطة لسانه"

"إنما الغريب – قال حامد – أنه عندما دخل مكتبه صبيحة السبت كانت الرئاسة قد طلبته، وكانت على علم بكل شيء وشاع أنه سيعفى من مهامه أو يكون – لا سمح الله – وزيرا للثقافة"

"وكان بالإمكان – قالت الزوينه – أن يقف الأمر عند هذا الحد، وما ذيوعه في الناس إلا بوائق زوجته، أودت بنفسها وبنيها وكادت تودي بعصمة أغلانا وتفرق بينها وبين زوجها – نعوذ بالله.

وكل ذات عقل تعلم أن الرجال لابد لهم من الترويح عن أنفسهم. وهي تعلم أنه شاب، وأنه كأخراص الذهب، وأنه ثري، وأنه في وظيفة سامية، وأنا وهي – أتوب إلى الله من غيبتنا – لا يعلم حالنا من تمام الصورة – أتوب إلى الله – ولا ما نحن فيه إن تكلمنا أو سكتنا، من القبول – أتوب إلى الله – إلا الله. وخير لمثلي أنا ومثلها هي أن تستر نفسها. لكنها قطعت دراسة أبنائها وسافرت بهم – تائبةأنا لله – من قلة عقلها. وما له هو بذلك علم.

وزال عقله حين جاء إلى الدار فلم يجد أحدا وأرسل إلى حارس المنزل وهو زنجي ليسأله عنهم، فلما لم يجده، ظن أنه غدر بهم أو مكن منهم بعض الإرهابيين الزنوج بعد تهديدهم إياه بأن ينشروا له دُوراته على وجهه، سألت ربي أن لا يعطيهم مرادهم فينا.

2. 3 الرجال

عندما جاء "الرجال" إلى العاصمة في مطلع السبعينات، بعد صيف لم يبق على شاة ولا زائلة، لم تكن المدينة قد اتسعت بعد.

"وقد لا يصدق – قالوا – من يراه اليوم بسيارته الفاخرة ونظارته التي تستبدل كل سنة في لاس بلماس، أنه كان مساعدا لتاجر قانعا بالمبلغ الزهيد الذي يتقاضاه، غير شاعر بجشوبة الحياة التي كان يحياها. ولكنه سرعان ما تنكر لأوضاعه وتنمر عليها حين رأى – فيما زعم – وكيلا لأحد رجال الأعمال يحمل مخلاة مليئة بأوراق النقد. فكان يقول:

"خمس من الزبد، خمس من الخبز، لعن الله هذا شغلا، إنما الشغل السلف من البنك وتجارة المحرمات".

ولما بدأ الإحصاء الإداري لسكان الكبة هجر المتجر وابتنى أكواخا في جميع أرجاء حي الانتظار فحصل منها على عشر قطع أرضية. ثم افتتح محلا صغيرا لمواد البناء سرعان ما عمت شهرته آفاق المقاطعة الخامسة. وحصل، بتدخل من مسؤول كبير في الحزب، على قرض كبير من البنك، فلم تبدأ حرب الصحراء إلا وقد تغيرت ملامحه جملة. وقطع كل علاقاته بتلك الحياة الأولى يوم دخل مكتب الدكتور بالمستشفى الوطني ليسلمه شهادة الوفاة فسأله مداعبا:

– ما اسم المتوفى؟

– تعرفه يا دكتور، ولد سنة 1939 وتوفي في بداية الشهر.

قال:

– ومتى كانت، بالتحديد، وفاة المرحوم، أطال الله بقاءه؟

فجلجت ضحكته عالية ثم أجاب:

– كان ذلك في منتصف الشهر وقد حلت عليه ديون للبنك فمن حرصه – رحمه الله – على قضائها مات بالسكتة القلبية!

ثم أخرج من جيبه حاملة مفاتيح وأوراقا ملمومة في حافظة بلاستيكية أنيقة، وقال وهو يتصنع الجد:

– وقد أوصى رحمه الله أن تدفع هذه السيارة للطبيب الذي يعمل له شهادة الوفاة.

فأجابه الدكتور على الفور:

– وأوصى – طبعا – ببقية ثروته لمن يستلم شهادة الوفاة من الطبيب ويرسلها للبنك.

وضحكا طويلا.

وبهذا ومثله استطاع أن يكسب محبة الناس، فحقق أرباحا طائلة. غير أنه لم يكن يملك في نهاية السبعينات – كجميع الأثرياء – غير مخازن للبيع بالجملة وشاحنات لنقل البضائع ومنازل تستأجرها للموظفين الدولةُ أو البعثات الدبلوماسية.

"وإنما أربى الله ماله – قال البكاي – وطهره بالإنفاق والصدقات وعصمه من غوائل الضرائب والجمارك وغيرها من سائر الآفات وسخر له أهل الصيد البحري، فأثرى من الرخص ثراء لا مثيل له"

"وكان له – قال حامد – من سعة العلاقات وحسن اصطناع الناس ما ذلل له كل صعب. إذ كان كلما سخطت القيادة الوطنية على مسؤول سام فأعفته مهامه أو ألقت به في الحبس أو جعلته وزيرا للثقافة أو نحوها مما لا جدوى منه واساه وأجرى عليه من الرزق ما يكفيه. فإذا تبدلت الأحوال وعين في وظيفة كان أطوع له من بنانه.

وهو الذي عمل على تعيين العراب بن التقي فور عودته مستشارا مكلفا بمتابعة المشاريع فكان - أي العراب- ممن يحفظ النعماء ويقر فيه الخير.

أما أغلانا فهو يعرفها من عهد الحانوت وهي يومئذ طفشة يتفحذها الصبيان عجنا على الحيطان. وهو الذي وهبها الدار التي تسكنها الآن. وأنفق بسخاء على عملية استئصال الرحم التي أجريت لها بالمستشفى الأمريكي بعد ولادة ابنتها وأنفق على إقامة هذه الأخيرة بعد الفطام عند المربية الإسبانية غلوريا في لاس بلماس. فلاغرو إن كانت تقضي له الحوائج عند الرجال بأبخس الأثمان.

4 الديمقراطية

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم أو أنني غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

دريد بن الصمة

وبعد كتابة ما سبق عرض لي من الشواغل والعوارض التي تعرض للمعلمين من رقابة وتصحيح الامتحانات وحساب المعدلات وملء كشوف الدرجات بالعلامات ما شطنني عن إتمام ما كنت شرعت فيه من تدوين وتبويب أخبار ولد أم هاني.

ثم لم أنفتل من ذلك إلا إلى مثله من الجلوس أمام الإدارة في انتظار التحويلات أو متابعة ما تأخر من التقدم التلقائي أمام إدارة الميزانية والحسابات. وكان من قضاء الله أن لقيت بعض من هو عيبة نصح لي من إخوان الطلب، فتذاكرنا تلك الأيام مليا ثم بحث له بما ينتظرني من الجاه العريض إن أنا أتممت ما شرعت فيه من هذه الصناعة.

وقلت له إن حامدا لم يصبح حامدا بصيته الذي ذاع في الآفاق ونظارته التي تستبدل من حين لآخر عند أكبر طبيب للعيون بالمستشفى العسكري إلا بعد أن كتب ما كتب في النسب فسفه رأيي فيما أملت وقال:

أتريد أن تقيس نفسك بحامد وعلامته القياسية، دون شك، فوق الألفين! وقد سار ذكره في البلاد، وأنت تلميذ، مرددا مع إخوانه الصحفيين عبر الأثير:

"... والقضية قضية شعبنا وأرضنا"

وقال فيما قال:

لكذا أو كذا تهديه إلى فلان أو إلى فلانة صبية فلان خير لك من اقتصاص زلات بني آدم. وما أراك تجني مما ستكتب إلا أن تمد هؤلاء الشياطين، الذين هم تلاميذك، بلقب به ينبزونك وربما يدعوك- ومنهم المتشددون — فهجروك، أو

رفعوا من أمرك إلى من يرفعه إلى المساعد المكلف بالشؤون الإدارية ما أنت عنه في غنى، فدع عنك هـــذه المختلقـــات وتب إلى الله من هذه الكبيرة التي أتيت.

فقلت:

قد – والله – صدق ولكأني أرى رأي العين ما قال كمـــا قال.

ولولا ما عقدت علي هذه العشيرة من الأمل في هذا الباب ما خططت بيميني غير ما يمليه الواجب من عمل المدارس أو ما لابد منه من نحو "تحمل فلان بن فلان الفلاني لفلان بن فلان كيت وكيت على أجل كيت وكيت".

كان ذلك حين حضرت اجتماعا عاما لأطر القبيلة دعا إليه مكتب القيادة العامة، بعيد الإعلان عن المسلسل الديمقراطي وظهور الأحزاب الأولى، بهدف التنسيق والتشاور من أجل

تحديد موقفنا من القضايا الوطنية الراهنة وتحديد شروط تمسكنا اللامشروط بأهداف أي حزب وتخويل القيادة العامة كامل السلطة في إجراء الاتصالات بكافة الأطراف وفقا لما يخدم المصلحة العامة.

وعلى هامش جدول الأعمال عينت لجنة حكماء لتنقية الأجواء ولجنة خبراء هدفها إبراز وزننا الثقافي والعلمي بحجمه الحقيقي وبيان الدور الذي يمكن أن يلعبه من كان مثلنا أينما كان.

وأرسل إلي ذات مساء المكلف بالثقافة والإعلام فأخبرني أنه عقد صلات بالعديد من مسؤولي الثقافة والإعلام على إثر ما قدم لهم — وهو إطار بالبنك المركزي — من تسهيلات صرف العملات بعد أن عقد عليهم إجراءاتها شيئا قليلا. فقال إنه اتفق معهم على حجز أماكن في برامجهم الثقافية لعدد من النوابغ حالت ظروفهم دون ظهورهم على

الساحة. فما عليك – قال – إلا أن تقول قصيدة تحصي فيها إيجابيات الدستور مثلا وسلبيات الفترة الاستثنائية ثم تتصل بي بعد ذلك في البنك وعندئذ أقدمك إليهم.

ولا تنس عند حديثك معهم أن تعرف بنفسك وبالقبيلة، أعني بالوسط الثقافي والعلمي التقليدي الذي تربيت فيه حتى صرت شاعرا ".

"إني لست شاعرا" قلت.

فقال كالمستهزئ بي:

"وهل يكون أهل العربية إلا شعراء؟".

وعبثا حاولت أن أعلمه ما يعلمه تلاميذ السنة الثالثة مما لابد للشعر منه من الوزن والقافية والمعنى والعاطفة والخيال. ولكنني لم أفلح – رغم جودة التمهيد ووضوح الشرح وبراعة استخلاص القاعدة في إيصال ذلك إليه.

ولولا ثغراته في مقرر السنوات السابقة، ولولا عدم انضباطه ولولا ترمرمه على المقعد ومقاطعته إياي خلال الشرح، لولا ذلك كله لأفهمته ما الوزن والقافيـــة والمعـــنى والعاطفـــة والخيال، كما أفهمت آلاف البلداء الطائشـــين وعشـــرات الصبيان اللاهين من أولاد الكبراء من قبله. وما كنت أظن من كان مثله يقابل من كان مثلي بمثل هذا الجفاء وهـــذه القحة وهذه الرعة، وخرجت. وقد قال عنتـــرة في كتـــاب القراءة والنصوص للسنة الثالثة:

(وإذا نزلت بدار ذل فارحل)

غاظني كما غاظني من قبل حين سلمت أحد أعضاء القيادة ورقة تحمل رقمي المالي، قبل الموعد الذي حدد لهم لزيارة مسؤول كبير، سلمته رقمي ليكلم المسؤول في شـــأن مـــا تعطل لي لدى إدارة الميزانية من الحصص الإضـــافية ومـــن التقدمات التلقائية، وشأن تحويل "بلتيهي" من مقر عملـــي

الماضي إلى مقر عملي الحالي، فانبرى لي وقد زوى ما بين عينيه وقال:

"نحن نناقش عن نصيبنا من مقاعد البرلمان ومناصب الحكومة وأنت تريد أن نتكلم في ساعات إضافية لمعلم!"

وانفقعت غضبا!

يغيرني – لا أم له – برسالتي الإنسانية ويزهو علي بأن سيلقي ذلك المسؤول ليزعم له أنه قائد قبيلة وافرة العدد وليس يتبعه – يعلم الله – ولا يقدمه سوى ذيله الأبتر أو حلمه بالمقعد الوثير والسيارة السوداء وإسناد المرفقين على الخوان الأخضر بقصر الرئاسة، وأنا لو شئت أن أنشئ في مدح ذلك المسؤول حولية عصماء، وأرد الأواجن الطوامي، وأقطع إليه منابت الحنوة والعرار، فعلت فقضى لي هذه

الحوائج، ولو أردت اللجاج لذهبت إلى المعارضة فتكلمت باسم العشيرة.

وما كنت أحب – عفا الله عما سلف – أن أعود إلى ما مضى بعد أن اعتذر إلي وسلمني رخصة بتحويل مائة ألف أوقية إلى الفرنك الفرنسي الخالص، فبعتها – جزاه الله خيرا – بخمسين ألف أوقية كنت في أمس الحاجة إليها.

ولم يكن في الحقيقة أغضبني سلوكه، فنحن معشر المربين بفضل سمو رسالتنا وشرف غايتنا، لا نستاء استياء كبيرا للكلمة النابية في الفصل ولا للزقية العالية ولا العلكة تلصق في الثوب ولا قطعة الطبشور ترجم القفا. فلولا هذا ومثله ما كان لعملنا النبيل معنى.

إنما أغضبني في الحقيقة عدم فهمه لما شرحت له من أمر الوزن والقافية والمعنى والعاطفة والخيال. على أنه – إن أعلمت فيك فكرك – قد يكون عائدا إلى التهوية أو إلى

الإنارة أو إلى انعدام وسائل الإيضاح، لا إلى خلل في عرضي ولا إلى بلادة في ذهنه هو — حاشا — فقد لقيته بعد ذلك وألفيته ظريفا لبيبا ذكي العقل. ولا غرو فأبوه ولي كامل وأبو أبيه أعلم من حوت مشارق الأرض ومغاربها.

لقيته وبينت له ما شرحت له من قبل من أمر الوزن والقافية والمعنى والعاطفة والخيال، فهز رأسه علامة الفهم وقلت له إني كغيري من العلماء كالخليل بن أحمد وعبد القاهر الجرجاني بارد العاطفة غير مجنح الخيال، وبالتالي بارد الشعر.

غير أني – قلت له — أستطيع أن أكتب قصة فهي غير موزونة ولا مقفاة ولا محتاجة معنى أو عاطفة أو خيالا. وإني — قلت له كتبت شيئا منها من قبل. فسر به سرورا عظيما وأخرجته من جيبي فنظر فيه وقال:

هذا تبارك الله، ما شاء الله، ولكن أكثره التـــاريخ. ولـــو جعلت فيه شيئا من الأزمة الاقتصادية العالمية ومضـــاعفات حرب الخليج وشيئا – ولو قليلا – من الديمقراطية وحقوق الإنسان – قال لي – لكان جامعا كاملا. "

قلت:

أأجعل فيه شيئا من الصحوة الإسلامية؟

قال:

– "لا أو أنتظر الأقل حتى ترد الداخلية علـــى الأصـــوليين بخصوص حزبهم".

وأنا في الحقيقة لا أجد ما مانعا من إضافة شيء من حقوق الإنسان وإن كنت لها كارها. وما ذلك إلا بفضل بغضـــي للأقسام المزدوجة وتلاميذها الذين لا يميزون بـــين العربيـــة والتربية الإسلامية، ولا ينادونك كما ينادي جميع التلاميـــذ

جميع الأساتذة في أنحاء المعمورة "يا أستاذ" بل يقولون "سيدي" كأنك معلم ولست أستاذا!

وأنا لا أكره الأقسام المزدوجة لذاتها وإنما أكرهها بفضل بغضي لسلى مدرس التاريخ ذلك الذي يأتمرون بأمره فيضربون إذا أراد ويدخلون متى شاء. فإذا طردت منهم من شتمك أو استهزأ بك جاء معه وقال:

"أنا وكليه"

وهم جميعا أبناء أخيه أو ابن عمه. ومما اتفق لي معه مما لا يكون إلا على سبيل الكرامة و"التزبة" أنه جاءني مع ذلك اللعين "جيبي" الذي جعل رأسه ضفائر وجعل حول عنقه قلادة تحمل نجما سداسيا، وهجر – على ما هو باد من يساره – جميع الملابس غير ينطلون من الجن بال، جاءني معه

وقد طردته ثلاثة أيام حين أبى أن يكلمني بالعربية، فقال فيما قال:

- أتطرده يا أستاذ، لأنه لا يتكلم العربية؟ وهل تفهم أنت، يا أستاذ، كلمة واحدة من لغته هو؟

وغاظني منه أن يقارن لغة الضاد برطانات العجم فقلت:

- وما أنت وذاك؟ ليس لمن لا يتكلم لغة الضـــاد في هـــذه الأرض مكان.

فكز أسنانه متوعدا وقال:

"سنرى"

واستدعاني المدير صبيحة اليوم الموالي فقال كلاما لم أفهـــم منه كثيرا غير أنه كان يكرر بانفعال أن المؤسسة ليست ولن تكون، بحال من الأحوال، مجـــالا للصـــراعات السياســـية والدعايات الهدامة، وأن الوالي، الوالي نفسه، لا الحاكم ولا

المساعد المكلف بالشؤون الإدارية قد اتصل به منذ لحظات وأخبره أنه على علم بنشاطاتي المشبوهة وأنه يعرف كيف يوقفني عند حدودي.

وحلفت بكل يمين ما أنزل الله بذلك من سلطان، فقال وهو ينظر إلي شزرا:

– أتقصد أن الوالي غير صادق في ما قال؟"

فانتصبت واقفا وقلت:

حاشا. .. حاشا"

وخرجت إلى "جيبي" في الساحة أترضاه بالفرنسية.

وسألت الله في سري أن ينتقم لي من سلي، فما مضت أشهر حتى انعقد مؤتمر وزراء الخارجية بهراريه، وثبت لا عند المساعد المكلف بالشؤون الإدارية ولا عند الوالي، بل

عند المدير العام للأمن الوطني أنه اشترك في تحرير المنشور الذي وزع على المؤتمرين بهراريه سنة 1986 وذكر القيادة الوطنية والولي بكلام منكر. وزعم أن الولي كان تاجر رقيق يتظاهر بالنسك حتى يأمن الناس جانبه اختطف هانا (يعني أم هانئ) بعد أن قتل غيلة وختلا زوجها الذي كان — فيما زعم — من سلالة إله من الأبنوس كان يعبد في هذه البقاع منذ فجر التاريخ، إلى غير ذلك من المحال البارد الذي لا يصدقه عقل. واقتيد إلى مفوضية الشرطة مكبلا ثم إلى المحكمة فكفى الله شره.

كما لا أجد مانعا من إضافة شيء من الديمقراطية إلى ما كتبت، خصوصا تلك الديمقراطية الكبيرة التي وقعت قرب دار الحاكم وجرح فيها خمسة رجال جروحا بليغة، وكسرت رباعية امرأة، ونتفت ضفيرتها وهي التي استدعت تدخل الجيش الوطني والدرك الوطني والحرس الوطني إلى

جانب الشرطة الوطنية والإدارة الوطنية معا، وأعلن الـــوالي حظر التجول من الساعة السابعة مساء إلى الساعة الســـابعة صباحا. وسجن خلق لا يحصى ليحقق معه في ما وقع. وأنا لم أشهد هذه الديمقراطية ولست أدري، على وجه التحقيق، كيف وقعت فالناس لا يتفقون على شيء ولست تدري مع من الحق. وإنما نحدث، وعلى الله التكلان، بما حدثنا وبمـــا سمعنا في إذاعات الدول الكبرى مثـــل فرنســـا وبريطانيـــا وأمريكا والسينغال، وبما دونته – حرصا على الموضوعية – من مقابلتي مع بلال الذي كان حسب ما ورد في بعـــض بيانات الأحزاب السياسية أول من لجأ إلى العنف...

* * *

كان في الستين من العمر، جعد الشعر معتما بعمامة مـــن التاج بالية وما وقع في الديمقراطية الماضية – كما يقـــول –

"ليس بشيء إنما بالغ الناس في تمديده وتوليده حتى علمت به الحكومة وحتى علم به النصارى وحتى علم به العرب. أنا نفسي سمعته بأذني هذه التي ستؤولُ – لا عذبتُ – إلى حال غير هذه. والمسألة لا تستحق كل هذا الكلام، فالناس من عهد أبينا آدم يختصمون ويقتتلون ويتصالحون أو يفنى بعضهم ولا حكومة ولا جنادر، ومنذ متى كانت الحكومة؟

لقد رأيت نفسي – كفى بالله شهيدا – سابع سبعة في مهارشة بالقدوم مع قبيلة، فوحق جلال الله وكماله، لم نزل من زوال الشمس – رقيب وعتيد على كتفي- يهرس بعضنا بعا حتى توارت في البحر، فما افترقنا – يعلم الله – وفينا وفيهم من ليست فيه جائفة، فما أعلمنا بذلك جندرا ولا حكومة، ما دخل الحكومة؟

أنا لا أشكو رجلا مثلي، لا يزيد علي بعضو إلى رجل آخر.

ولست أحكي لك إلا ما لا يعذبني بحكايته ربي، أنا لم أكن على علم بشيء. جئت إلى المدينة لآخذ خلفة كانت عند العابد بعد أن أرهقته حشا، وكان من عادتي إذا جئت المدينة أن أذهب إلى مارية بنت محمود خادم التقي بن مالك، فبيني وبينها – تائب بلال إلى الله – من عهد الصبا من المودة والألفة ما لا يهون معه ألا أزورها، فضلا عما كان يجتمع عندها من مداحي النبي المصطفى ليلة الجمعة".

"ودخل الحفل – قال عبيد أهلي – فتأبط دبوسه وطفق يصفق ويشير إلى معارفه بسلام كأنه الرقص ويردد مدح رسول الله مع المداح:

والله ثم والله ما نترك عز البخيله
كون إلى عاد أمر الله من السماء أنزيل

واحرنجم الناس حوله جميعا، حتى مارية، مارية نفسها تربعت عند حافة الطبل وغنت. مارية نفسها التي هجرت الغناء منذ تعيين السالك غنت. وهو عند ركبتها متأبط دبوسه يردد بصوته القوي المبحوح:

ألا النبي زين وفالح زين الليله وزين البارح

كانا لا يريان من حولهما أو لا يعيرانه اهتماما، والناس من حولهما واجمون كأنما زقا عليهم ملك، مأخوذون بصوته المبحوح كأنما يأتي من زمان أو مكان سحيق:

مارية زينة ونقية تتبسم بالفم المالح
ما نوردله ماهي لو عادت تشرب الموالح

ما وقع بعد ذلك، أنا أقول أنه جذب، أنا رأيت دمعتيه على ضوء القمر وقد التقتا على ذقنه، كان في عالم ليس معه فيه إلا ماريه التي كانت حاسر الرأس تنشد أمامه:

أونـــــامس توالتحـــــوال شافت عيني كمك طايح
طاح البال وطـــاح الـــدلال ومشات الخلطه تطـــايح

ولم يعد يطيق على الثبات صبرا فحل عقد أكمامه وسـقط الدبوس من تحت إبطه وهب واقفا وهو يقول:

"وسعوا. .. وسعوا. .. خلونا نرقص علـــى مـــدح خـــير الرجال، بجاهه وجاه عربنا الصالحين يجيرني أنا ومن أحـــب ومن يحبني من خزي الدنيا وعذاب الآخرة".

فانفقع الحر غضبا، وناداه عدة مرات فلم يجبه، أنا أقول إنه لم يسمعه، فدنا منه وهو يرقص وأمسك بمنكبه، والتفـت بلال فرآه – تبارك الله ما شاء الله عظيما جسيما– فقال:

"أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت"

واندفع ثانية إلى مرجع الرقص.

"وبينما أنا مشغول – قال بلال – بما لا أرجو ثوابه إلا عند الله ورسوله إذا عبد ضالة يتهددني ويتوعدني بكلام النصارى، فقالوا: هذا زوج (سلم عربيه) بنت ماريه، وهو يقول لك لا تعد مثل هذا الكلام الذي قلت، هنا فقلت له:

– لست أجيبك فأنا لست نصرانيا، الحمد الله، ومولانا يقول: (واعرض عن الجاهلين) وقد استعاذ النبي من العبد الأحمر".

فهبز نحوي يطاميني وحالت بيننا الحجاز، وأنا لم أتحرك من مكاني ولا عود في يدي فقلت لمن يحجزونه لما رأيتهم ينترونه ويعفسونه ليجلس:

– خلوه. .. خلوه. .. كفرت لا يكون مني بحيث تصله يسراي هذه إلا صليت على خير الرجال ولطمته على الخد الأيمن حتى يقول (خرجت ضيفا)، وانتهى المدح وفي الصباح وقعت الهيشة".

* * *

كتبت صحيفة النفير الحرة التي يديرها حامد، في عددها التالي للأحداث، بالبنط العريض:

(كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، أجهزة الأمن تحبط أكبر مؤامرة ضد هوية بلادنا وسيادتها، النفير تنفرد بنشر تفاصيل المؤامرة)

"قامت قوى الشر التي تحركها في الخفاء أيادي الإمبريالية والماسونية والصهيونية العالمية بمحاولة تنفيذ مخطط جهنمي يستهدف القضاء على هوية بلادنا وتغيير حقائقها التاريخية.

وقد انتدب لهذه المهمة أحد أبـــرز عناصـــر الأخطبـــوط الشيطاني، هو بلال، الذي يتـــولى الـــربط بـــين أجنحـــة الأخطبوط داخل البلاد وعقله المدبر في الخارج الذي يتلقى الأوامر من أسياده في تل آبيب. كيف تابعت أجهزتنا الأمنية تنظيم أعداء الله حتى أحكمت قبضـــتها عليـــه وأفشـــلت مخططاته الجهنمية؟

هذا السؤال وغيره يجيب عنه مبعوثنا الخاص إلى عين المكان.

وجدير بالذكر أن الحزب أصدر بهذه المناسبة بيانـــا بـــالغ الأهمية جاء فيه:

"وإن الحزب، إذ يسجل بارتياح مستوى النضج والمسؤولية الذي تحلى به مناضلوه طيلة هذه الحملة رغم استفزازات من تحركهم في الخفاء أياد أجنبية، ليستنكر ويندد ويشجب تلك الممارسات الخسيسة التي قامت بها ثلة لا يخفى على أحـــد ولاؤها لأعداء الوطن. خصوصا ما تعرض له مناضـــلونا في

(المدينة) على أيدي هذه الثلة من عملاء الإمبرالية والصهيونية، حيث اعتدى على المناضل "الحر" أثناء أدائه لواجبه الوطني النبيل فأصيب إصابة تدعو إلى القلق كادت تؤدي بحياته لولا تدخل قوات الأمن.

عاش الحزب حاميا لحمى هذا الوطن، وعاشت قيادته النيرة، على رغم جميع الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره".

أما إذاعة فرنسا فقد خصها العراب بمكالمة هاتفية أذيعت في نشرة أنباء (مساء إفريقيا) ثم في نشرة أنباء (زوال إفريقيا) قال فيها:

"إن الفساد أصبح أعظم من أن يطاق، وإن تطلعات شعبنا إلى الحرية والكرامة لابد أن تتحقق، وإن الطغمة الحاكمة وأذنابها لن يجدوا بدا من الرضوخ لإرادة الشعب. أما

بخصوص المواجهات الأخيرة فإننا نستنكر ونشجب وننـــدد بما تعرض له مناضلونا من قمع السلطات، وخصوصا بلال الذي تدعو حالته الصحية إلى القلق".

أما بخصوص حقوق الإنسان فقد قال:

"إن الإنتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان تستدعي، حقـــا، أن تفرض المنظومة الدولية عقوبات صارمة ضد النظـــام في بلادنا".

"وربما كانت – قيل لي – حدة العراب في تصريحه المتعلـــق بحقوق الإنسان عائدة من بعض الوجوه إلى إصـــابة بـــلال الذي كان له دون إخوته وذويه".

وحدثني قوم ونساء من الطرفين كليهما ممن شهد الهيشـــة المذكورة، وقد أثبت روايتهم جميعا، قالوا:

"وأول ما ثقب نار الفتنة أن بلالا عبد أهل البكـــاي جـــاء صبيحة الجمعة التي وقعت فيها الديمقراطيـــة ليشـــارك في التصويت، ولم يكن مسجلا على لائحة، ولا كان يملـــك بطاقة تعريف".

"صحيح – قيل لي – ولكن بأي ذنب قتل؟ أليس يحق له أن يصوت كغيره من غير المسجلين؟"

"وكان الناس مصطفين أمام مكتب التصويت الذي يلي دار الحاكم من جهة الجنوب".

"ولم يكن – قال بعضهم – يسوده النظام السائد في المكتب الذي يليها من جهة الشمال".

"ورغم أن الحملة كانت قد انتهت، فقد كان لكـــل مـــن الطرفين أشياعه الذين يتحدثون بمآثره ومآثر أجداده، وكان بلال يلعب على طبل سيده".

"ثم انتقل إلى الطبل الآخر يبحث عن المشاكل".

"وهنالك وقع ما وقع وسقط بلال ودمه يـــدغفق بعـــد أن طرح خمسة من خصومه أرضا".

"واشتبكت النساء صفعا ونتفا، وحلفت أم المؤمنين بنـــت التقي لا تهدأ حتى تحشو أغلانا فلفلا مطحونا. وكانت فحلة إذا هاجت لا يردها شيء، فكشطت عنها لباسها وكادت تفعل ما أرادت لولا أن نترتها أخرى بسالفها وضـــفيرتها، ورمتها أخرى بإبريق كسر رباعيتها، ولم يزلن بهـــا حـــتى ملصن منها أغلانا فالتحقت بصواحبها اللائي كـــن قـــد انكشحن عنها في أول وهلة".

* * *

"وحالت بيننا الحجاز، وأنا في مكاني لم أتحرك ولا عود في يدي، فقلت لمن يحجزونه لما رأيتهم يعفسونه وينترونه ليجلس:

خلوه. .. خلوه. .. كفرت لا يكون مني بحيث تصله يسراي هذه إلا صليت على خير الرجال ولطمته على الحنك الأيمن حتى يقول: خرجت ضيفا.

وانتهى المدح وعدت إلى دار العراب فوجدته ورجالا معه مستيقظين. والتقطت من كلامهم أشياء، وسمعته يقول:

– لن نغلب، ولو اقتضى الأمر أن نترك كل هذا عدما.

ونمت إلى الفجر أمام الدار فأنا لا أنام في مكان مسقوف. وقمت فعصبت رأسي بكاس من الشاي. وسلمني العراب بطاقات قليلة، أربعا أو خمسا، لأصوت بها. فصوت بها ثم قلت لكبير المكتب إنني أعطيها للعراب.

وجئت إلى مكان الواقعة، فوجدت الطبل والهالة من حوله.

وأهل هذا الزمان لا يلعبون الدبوس ولم أجد منهم في سني،

فقال لي العراب:

- ربما كان صديقك مسعود عند الطبل الآخر فاذهب إليه

إن شئت.

وذهبت إليه، فما كادت الخادم زوجته تراني حتى استقبلتني

وهي تصفق:

شـــي يواســـو الخـــــدم   لا جـــاهم بــــــلال؟

يواســـــو ذي الحيـــــل   ومعاهـــا ذي الحـــــال

ويـــهزوا الـــزهـــلـــول   ويهـــــزوا الـــميـــــال

وانثال امسيعيد إلي فرحا فعانقني، ثم دخلنا المرجع وخبطنا

خبطات كالياقوت.

وأنا لم أكن أظن السالك وأخواته يشارون مواليهم حتى سمعت أخته الصغيرة، زوجة العبد الأحمر، حين سمعت كلام العراب، تقول:

- كذبت وأذنبت وضرطت ضرطة تزنك عشر مرات، كضرطة فرعون التي لا يزال رعدها يدندن!

فصحت بها:

- اسكتي إن كنت لا تريدين أن يسد الله حلقك!

والتفت فإذا العبد الأحمر خلفي يجوغ استهزاء بي. فقلت:

- يا أمة الهادي، يا جماعة المسلمين! انهوا هذا العبد عني إن كان لا يريد أن أتقرب إلى الله بدمه. انهوه عني إن كان يسمع!

وكثر الكلام، وهبز إلى جذعان يطامونني، فجعلت – إن شاء الله – أصابعي هذه في ترقوة أحدهم ودفعته بها، فإذا هو كالعزبة ملقى على قفاه. ونترت من حزامي خير الرفاق (يقصد الدبوس) فتمغطت حتى مسست بها العبد الأحمر، وألقيتها دوين السماء وحمت حيث حامت الحدأ فلقفتها، وصحت.

وزغردت خادم لنا زغرودة لست أنساها لها ما حييت فاقشعر جلدي وداخلني طور من الطرب مالي به عهد.

وحلفت لا يصلني إنسان إلا عض الحصى".

"ومر بجانب الديمقراطية – قال عبيد أهلي – ورزك وزوجته عائدين من المسجد إلى بيتهما، فأسرعت إليه أخبره بما صار إليه أهله من القتال، فلم يجبني أول الأمر، ثم قال:

– هداهم الله.

ونظرت في عينيه من خلف النظارة السميكة التي عاد بها من الباكستان، ورغم أنه يكاد لا يرى ما بين رجليه، من قصر النظر، فقد رأيته من وراء النظارة ينظر خلف ظهـــري إلى أفق بعيد.. بعيد..

ولم يلبث أن لحق به المختار بن البكاي في قمـــيص مثـــل قميصه وعمامة مثل عمامته، فقال:

- السلام عليك يا شيخ!

ثم سأله:

- أين بنت الصحابة؟

- فعلمت أنه يسأله عن زوجته.

والتفت إليها - وهي مُقرب - فخيـــل إلي أن في بطنـــها العظيم شيئا عظيما ستكشف عنه الليالي قريبا".

5. الخاتمة

أما بعد فليس يخفى علينا ما في هذه القصة من نقص كان بالإمكان تفاديه، وإنما عجلنا في كتابتها ونشرها ليكون لقبيلتنا دون سائر قبائل الولاية شرف الريادة في هذا الميدان. وسوف يسجل تاريخ الأدب العربي الحديث لعشيرتنا هذا الشرف الذي لا يحلم به غيرنا. وأنا صاحب هذه الفكرة ولا فخر.

فأناالذي عملت على إقناع عدة شخصيات من مجلس القيادة العامة وبعض الأطر البارزين بضرورة تبني هذا المشروع، ودافعت عنه دفاعا مستميتا أمام مجلس نواب القبيلة ومكتب الأمناء التنفيذيين حتى وافقوا جميعا على أن تطبع القصة على حساب الصندوق التعاوني، وأرسلوا نسخا منها إلى أبناء القبيلة المقيمين في أرجاء الوطن العربي ليطلبوا لها التقريظ والتحليل من كبار الكتاب والنقاد والصحفيين.

ولولا هذا الطابع الاستعجالي لجعلناها أطول من هذا كثيرا وجعلنا فيها كثيرا من الأماكن والأزمـــان والشخصـــيات والأحداث والسرد والحوار والتناص وتعدد اللغات.

ولكننا كنا في سباق مع الزمن و كان لا بد أن ننشر شيئا بعد أن نشرت عدة قبائل كتبا وبحوثا لأبنائها.

لقد مضى إلى غير رجعة ذلك العهد الذي كان فيه كتابنا وطلابنا يحققون أعمال مؤلفين من قبائل أخرى أو يبحثون في حياتهم أو يحللون مؤلفاتهم، منـــذ أن أصـــبحنا حقيقـــة وكيانا، وشيدنا قريتنا الميمونة (الروضة) قرب قـــبر الـــولي مالك، حول البئر التي احتفرتها لنا الحكومة مقابل دعمنا لها في الانتخابات، وشيدنا إعدادية ومستوصفا ومقرا للعمدة، وضريحا للولي بالتعاون مع كبار مشايخ الطريقة على امتداد العالم، وحمينا أرضنا من طمع الطامعين، فلا سلطان للولاية ولا للداخلية عليها.

ولا يزال الفنيون يدرسون توأمة بلديتنا مع أكثر ما يمكن من بلديات العالم، وتوأمة الضريح مع جميع الأضرحة في العالم الإسلامي وجميع المدافن المشهورة التي تدر على القائمين عليها دخلا. و لم يبق لنا إلا الثقافة ...

ولن تمضي، بحول الله، سنة تنشر خلالها هذه القصة وغيرها من الأعمال التي نعكف عليها اليوم، حتى تصير قبيلتنا أكثر القبائل ثقافة فنعود كما كنا في عهد الولي، أيام العظمة الأولى.

محمد أحمد تتا

نواذيبو، يونيو 1994

محمد بن تتا

أولاد أم هانئ

رواية قصيرة

أغسطس 2006

بيانات المطبعة
حقوق النشر محفوظة للمؤلف